البعد السياسي لنشاط الحركة الإصلاحية البادیسیة وأثره على منطقة القبائل (و شهد شاهد من أهلها)

سعيد شريفي / أستاذ مكلف بالدروس
المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية،
بوزريعة

الموضوع: البعد السياسي لنشاط الحركة الإصلاحية البادسية وأثره على منطقة القبائل (وشهد شاهد من أهلها)

أعترف مسبقا، أن نشا الحركة الإصلاحية البادسية لا يفي حقه، إلا باحث متمرس، وما أنا إلا بمبتدئ.

والغرض من هذا المقال المتواضع هو المساهمة في إبراز مواكبة منطقة القبائل لحركة الإصلاح في نشاطها المتعدد الجوانب، والعميق الأثر في مشروع المجتمع الجزائري، هذا المشروع الحضاري المتجذر الذي تحاول بعض الأيادي البتراء، أن تعيد صياغته على شاكلة هجينة، تجعل المجتمع الجزائري عملاقا، ولكنه واقف على أرجل من طين.

والنقطتان اللّتان اخترتهما في الموضوع هما:

1. الجانب السياسي لحركة الإصلاحيين.
2. أثر هذا الجانب في منطقة القبائل.

اخترت النقطة الأولى لأن البعض مازال مقتنعا بأن نشاط الحركة الإصلاحية نشاط ديني لا علاقة له بالعمل السياسي الذي قامت به الأحزاب السياسية الأخرى في الحركة الوطنية.

هذا النشاط الذي أثمر ثورة التحرير الكبرى، وقد نجد هذا التوجه عند بعض "اليسارين الذين يستبعدون الإصلاحيين من المساهمة الفعلية في ثورة التحرير الوطنية"(لخ)

كما نجده عند دعاة الإندماج الذين أنكروا وجود الأمة الجزائرية في التاريخ، وبحثوا عنها في المقابر ولم يجدوا لها أثرا.

والنقطة الثانية في هذا الموضوع هي مواكبة منطقة القبائل لنشاط الحركة الإصلاحية. أردت إثارة هذه النقطة من وجهة نظري، حتى لا يبقى الحديث في هذا الظرف، حكرا على توجه سياسي معين، وامتيازا لتيار يتحرك في هامش ضيق الأفق يحاول غرس أشجار الصنوبر في أرض التين والزيتون.

واخترت البدء بتحديد المفهوم العام للسياسة والفعل السياسي لتبيان إذا ما كان نشاط الحركة الإصلاحية يتماشى مع هذا المفهوم، أم هو متناقض معها، ثم إبراز مدى مواكبته منطقة القبائل وتفاعلها معه لا على مستوى الأفكار فقط، وإنما على المستوى الميداني.

مفهوم السياسة و النشاط السياسي

1 - السياسة في فكر أرسطو هي تحقيق مبدأ الخير العام للمجتمع(لخ).

1: أنظر جريدة الأحرار اليومية العدد رقم 23 يوم الاثنين 3 أكتوبر 2005، ص 10. مقال الأستاذ محمد العربي ولد خليفة، رئيس المجلس الأعلى للغة العربية.

2 - أو هي فن حكم المجتمعات الإنسانية[1].

3 - في حين يرى البعض أن السياسة هي (مجموع الجهود التي نقوم بها من أجل المساهمة في السلطة، أو توزيعها بين مختلف الجماعات في دولة واحدة، أو دول مختلفة[2].

أما المرحوم الشيخ الإبراهيمي فيرى أن "أعلى معاني السياسة هو تدبير الممالك بالقانون، والنظام، وإحاطة الشعوب بالإنصاف والإحسان، فإذا نزلوا بها صارت إلى معنى التحايل على الضعيف ليؤكل، وقتل مقوماته ليهضم، والكيد للمستيقظ حتى ينام، والهدهدة للنائم حتى لا يستيقظ"[3].

نلاحظ أن المرحوم الإبراهيمي قطب من أقطاب الحركة الإصلاحية يميز بين نوعين من السياسة والعمل السياسي، النوع الأول يتماشى ويتطابق إلى حد بعيد مع المفاهيم الفلسفية السابقة الذكر، هذه المفاهيم التي تعطي للسياسة معناً أخلاقيا راقيا تجعل السياسة تهدف إلى خدمة الفرد والمجتمع في نفس الوقت. وفي هذه الحالة يكون نشاط الحركة السياسية أو الحزب السياسي على

---

1 : علي عبد المعطي محمد وآخرون السياسة بين النظرية والتطبيق دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، 1974، ص 77.

2 : حسن صعب، علم السياسة، ط 3، بيروت، دار العلم للملايين، 1972، ص 19.

3 : همار طالبي، محاضرة في جامعة الجزائر، يوم 8 مارس 1977.

4: محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع (د ت)، ص 39.

وعي تام بوظيفته البنائية ويجعل من عمله السياسي وسيلة نبيلة لتحقيق غاية أنبل، وهي التربية الخلقية التي تجعل المرء فاضلا ليكون أهلا للسياسة وتدبير شؤون الملك[لخ].

وفي هذه الحالة فإن دور العمل السياسي هدم وبناء، هدم الأفكار البالية التي تحجب الحقيقة عن الإنسان، وتجعله يعيش في الأوهام، ويمد يده لقطف الأشواك ويحسبها ورودا. ثم تأتي عملية البناء. وهي تربية النفوس، وتكوين العقول التي تدرك المعنى الحقيقي للسياسة، والدور الذي ينتظره المجتمع أن يلعبه رجل السياسة في أحلك الأوقات، وأشد الأزمات، وهل هناك أحلك ظرف وأضنك معيشة، أكثر من العيش والحياة تحت نير الاستعمار الفرنسي.

والنوع الثاني من السياسة هو الذي يتخذ من السياسة والعمل السياسي "مطية مزعومة لتبؤ عرش الزعامة الموهومة، والتهافت على كراسي النيابة، والتنابز بالألقاب في المناقشات الفارغة القشور، والافتتان المزري بالأشخاص الذي ظهر على أقبح صورة في المجتمع الجزائري، دون أن يكون ذلك في صالح الأمة الجزائرية ولا فائدة قضيتها، بل هو كله في مصلحة الاستعمار"[بر]، هذا

1: أرسطو، السياسات، طبعة بيروت، ترجمة الأب أوغسطين برباره البولسي، 1957، ص 175.

2: عيون البصائر، مصدر ذكر، ص 40.

الاستعمار الذي اتخذ من بعض المحسوبين على السياسة في الجزائر أداة لإفراغ العمل السياسي في الجزائر من محتواه الأخلاقي والفكري والاجتماعي وفض العلاقة المباشرة بين السياسة والحياة.

فالأولى تخطط للثانية لأن السياسة على حد تعبير مالك بن نبي ما هي في جوهرها إلا مشروع لتنظيم التغيرات المتتابعة في ظروف الإنسان وظروف حياته، لأن الفرد غاية لكل سياسة، وعامل مهم في تحقيق هذه الغاية، وهو عنصر في المشروع السياسي، وموضوع تتحقق فيه الغاية[لخ].

وكل انحراف أو تحريف للسياسة عن هذا التصور يجعل من السياسة عبارة عن "أداة وأقاويل، لا يراد بها وجه الحق ولا مصلحة الوطن، وإنما يراد بها إرضاء النزاعات الحزبية المبنية على التحاسد فيما لا يتحاسد عليه العقلاء"[بن].

يبدو أن هذا المفهوم مازالت بذوره تزرع هنا وهناك، في حقول الرداءة الفكرية التي تتغذى من أسمدة النفايات الأجنبية.

وإذا كان هذا هو الهدف من النشاط السياسي، فأقول منذ الآن، بأن حركة بن باديس الإصلاحية بريئة منه براءة الذئب من دم آل يعقوب.

1: مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصور شاهين، الجزائر، دار الفكر، 1969، ص 106.

2: عيون البصائر، مصدر ذكر، ص 41.

- فما حقيقة السياسة والنشاط السياسي في فكر بن باديس ؟

حقيقة نشاط الحركة الإصلاحية ومنهجها:

لا يمكن حصر العمل الإصلاحي في الميدان الثقافي والديني لجمعية العلماء التي تأسست في بداية الثلاثينات على يد المرحوم الشيخ بن باديس في الجزائر، فنشاط هذه الجمعية هو امتداد وإثمار لعمل إصلاحي واسع المجال، يمكن ربطه بالمدرسة السلفية التي ظهرت في العالم الإسلامي خلال القرن الثامن عشر على يد السيد محمد عبد الوهاب (1696 - 1791) وأمثاله مثل الشيخ عبد الله الشوكاني، وجمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، ورشيد رضا، وعبد الرحمان الكواكبي(لخ).

ومن العوامل التي ساعدت على تسرب وتأثير فكر هذه المدرسة في الفكر الإصلاحي الجزائري، الحجاج إلى بيت الله الحرام وكذلك البعثات الطلابية، والجرائد مثل "العروة الوثقى" و"المنار" وزيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر، واتصالاته ببعض الشخصيات مثل الشيخ عبد الحميد بن سماية(بر).

1: تركي رابح، أنظر مجلة الأصالة، عدد 24 مارس 1975، ص .74

2: مقال محمد الهادي الحسني، جريدة الشروق اليومية ، الخميس 2005/10/6، عدد 1502، ص 32.

والحركة الوهابية كما هو معروف ذات جانبين: جانب ديني، وجانب سياسي فمن الناحية الدينية كانت دعوة إصلاحية سلفية، تحارب البدع والطريقة السلبية التي تنافي السلوك الديني الصحيح والمبني على جوهر العقيدة الدينية، ومن الناحية السياسية، كانت ثورة على الخلافة العثمانية[لخ].

إذا كان هذا هو المنبع الفكري الذي ارتوت منه الحركة الإصلاحية في الجزائر، فما هو المجال الذي كانت تتحرك فيه ؟

فهناك من قال بأن "هدف الجمعية هو محاربة المرابطين أداة الاستعمار بالإضافة إلى تكوين إطارات مثقفة ثقافة عربية"[بر].

إذا سلمنا جدلا بأن الحركة تأسست فقط لمحاربة المرابطين أداة الاستعمار، فإن الحقيقة التي لا مفر منها، هي أن محاربة أداة الاستعمار هي محاربة الاستعمار نفسه، فبنشر الوعي الديني الصحيح بين المواطنين لنفض غبار التخلف الفكري والديني، تكون الجمعية قد مهدت المناخ لنشر الوعي السياسي الذي بدونه لا يتم التغيير. فالمسألة هي مسألة أولويات، ومسألة مناهج وطرق التغيير والإصلاح، أما الهدف فواحد تلتقي فيه الجمعية مع باقي الأحزاب السياسية الأخرى، وكذلك فإن تكوين إطارات مثقفة

1: محمد عابد الجابري، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، عدد 77، أكتوبر 1983، ص 91.

2: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية 38، الجزائر 1974، ص .91

ثقافة عربية إسلامية هو تكوين لجيل محصّن من الذوبان في الآخر، والانسلاخ من جلدته الثقافية.

ولب الثقافة هو اللغة واللغة هي دالة الفكر أو هي "مجلى للفكر" وترك الانشغال بها يعني موت الحياة العقلية[لخ].

ولهذا فإن الاستعمار الفرنسي خطا خطوات منهجية في سبيل تحقيق هدف التجريد من الثقافة الإسلامية، فجرد السكان من السلاح، وفرض أدبيات الإدارة الفرنسية على المواطن وكذلك فرض التعامل القضائي والعدالة على السكان. وأخيرا احتل بعض الأدمغة من خلال المدرسة التي حاول تعميمها على كل مناحي الوطن لمنع العوائق بين التعليم الفرنسي والشبيبة المسلمة[بر].

ويبدو من خلال هذا التوجه أن الاستعمار الفرنسي استعمل المدرسة لأغراض سياسية وليست علمية، ولهذا فإن حركة الإصلاح انطلقت من نفس المنطلق، وهو إصلاح التعليم وتحصين الشباب من سموم المدرسة الفرنسية التي ما تزال الجزائر المستقلة تعاني من أضرارها ومكائدها في القرن الواحد والعشرين، فحركة الإصلاح إذن، استعملت نفس السلاح واعتمدت نفس

1: عباس محمود العقاد "محمد عبده"، سلسلة أعلام العرب، العدد الأول، المؤسسة المصرية العامة (دت)، ص 268.

2: عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، ترجمة فيصل عباس، مراجعة خليل أحمد خليل، بيروت، دار الحداثة للطباعة و النشر 1981، ص 78.

المنهجية، فبدأت من حيث نقطة السياسة الفرنسية في احتواء الشبيبة الجزائرية وركزت على التعليم و التربية الإسلامية.

الرأي الثاني الذي قيل في نشاط الجمعية هو: "إن برنامج جمعية العلماء كان يسعى إلى تحقيق ديني وثقافي في نفس الوقت، ففي الميدان الديني، العمل من أجل تنقية الإسلام من الشوائب التي علقت به، وفي الميدان الثقافي، سعت الجمعية من أجل القضاء على الخلافات المذهبية بين المسلمين الجزائريين[لخ]. هذا صحيح، ولكن ما هو الهدف السياسي من توحيد المسلمين الجزائريين وتنقية الإسلام من الشوائب، إن لم يكن رصّ الصفوف وتقوية الوحدة الإسلامية، والقضاء على الحزازات الحزبية التي كانت ولا تزال العائق الكبير أمام الوحدة الوطنية ؟

ألم تكن فرنسا تشجع الطرق الصوفية الخدرة للشعب الجزائري، ومحاولة زرع بذور الفتنة بتأجيج النعرات العرقية والحزازات الجهوية والعزف على أوتار اللهجات المحلية لإلهاء الشعب الجزائري وصرفه عن القضية الأم، وهو العمل السياسي الهادف لتحرير الجزائر، ونفس السلوك قامت به فرنسا تجاه تجار السياسة في الجزائر، الذين ظنوا أن السياسة هي الجري وراء كراسي البرلمان التي كانت سببا في الكثير من الأحيان لإثارة الفتنة بين

1: شارل أندي جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سمير و آخرون، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1976، ص 133.

عروش منطقة القبائل، فهذا عرش يناصر فلانا، وذلك عرش يدعو إلى التصويت على الشيخ فلان، وكثيرا ما سبب هذا التنافس في التفرقة بين أبناء العرش الواحد، ولهذا فإن حركة الإصلاح الباديسية كانت تسعى إلى نشر الوعي السياسي وتمريره في قالب ديني ثقافي على أساس أن المواطن الجزائري في ذلك الوقت كان وعيه الديني الإسلامي أعمق من وعيه السياسي، ولهذا كان الاستعمار الفرنسي يلهم الناس بأن الدين هو المسك بجلابيب الأضرحة والتبرك بقبور الأولياء والصالحين، في حين عملت الحركة الإصلاحية على التمييز بين التصوف الديني المخدر للشعوب والتصوف الديني المحفز للشعوب وإعطائها الطاقة الروحية للانطلاق في تعبئة شاملة جادّة ضد حملة الصليب في الجزائر التي أرادها الله أن تكون وتظل قلعة من قلاع الإسلام.

فجمعية العلماء إذن كانت تمارس النشاط السياسي في قالب ديني، حتى لا تتعرض لعقوبة الإستعمار الذي كان يتشدد مع العمل السياسي الهادف ويتساهل مع العمل السياسي الهزيل، ولهذا كانت الحركة الإصلاحية تتفادى المجاهرة بالعمل السياسي التحرري. فحين أقدمت فرنسا الإستعمارية على توقيف جريدة السنة عوضها بجريدة (الشريعة) وعبر عن استنكاره لهذا الإجراء التعسفي بقوله: "هل نقم علينا الناقمون من تأسيس جمعية دينية إسلامية تهذيبية، تعين فرنسا على تهذيب الشعب وترقيته ورفع مستواه إلى درجة لائقة

بسمعة فرنسا ومدنيتها وتربيتها للشعوب؟ فإذا كان هذا ما ينقمونهم علينا، فقد أساءوا إلى فرنسا قبل أن يسيئوا إلينا"[1].

الظاهر من هذا النص أن الحركة الإصلاحية لا علاقة لها بالعمل السياسي وإنما هو نشاط تربوي مكمل لرسالة فرنسا الحضارية في الجزائر، وما دامت هي كذلك فلماذا النقمة عليها ولماذا عرقلة نشاطها التربوي ولكن فرنسا أدركت الأبعاد الحقيقية لنشا الحركة الإصلاحية وراحت تعرقل وتضايق، و ابن باديس كان يقارع الحجة بالحجة، وهذا من طبيعة رجل السياسة المحنك، ولكن لا محاجّة عندما لا تتكافأ الفرص، ونتيجة النزال بين الأقوى والأضعف متكهن بها قبل الصعود إلى حلبة المصارعة، ولعل مثل هذه الأوصاف الواردة في أدبيات الجمعية هو الذي إنطلق منه خصوم الجمعية في محاولتهم لإستبعادها من النشاط السياسي الذي خاضته الحركة الوطنية، هذا النشاط الذي تجسد في ثورة نوفمبر 1954.

ولكن الاستعمار الفرنسي أدرك أن حقيقة العمل السياسي لا تتجسد في نوع التنظيم إن كان حزبا، أم هيئة دينية بل الهدف الذي يسعى هذا التنظيم إلى تحقيقه على المدى البعيد أو القريب، فكثيرا ما كانت الحركات الدينية هي الرحم الذي ولدت منه

1: جريدة الشريعة، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عدد 17 جويلية 1933.

الحركات السياسية التي قلبت موازين القوى وقوضت أركان الطغاة، فالحركة البروتستانية التي ظهرت في أوروبا في القرنين السادس والسابع عشر، كانت دينية الطابع. فقد توجهت إلى إصلاح الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تمارس طقوسا مناقضة تماما لروح العقيدة المسيحية فانصب نشاط الحركة البروتستانية على تنوير العقول الأوربية التي كانت تتقبل تقبلا أعمى، الفكر الكهنوتي المكبل للعقول[لخ].

ولكن هذا النشاط قد ساهم في إثراء الفكر السياسي بظهور نظريات سياسية، كانت القاعدة الأولى في تغيير أنظمة الحكم في العالم الغربي، والفكر الكهنوتي الذي حاربته البروتستانية لا يختلف في بعض مظاهره عن الطرقية الجامدة التي حاربتها الحركة الإصلاحية الدينية المظهر، والسياسية الجوهر.

فالحكيم الصيني "كونفيسيوس" يرى بأن إصلاح المملكة، يكون بإصلاح الأسرة، وهذه الأخيرة يتم إصلاحها بتربية الفرد، وتربية الفرد تكون بإصلاح عقيدته، وتنقية نفسه[بر]. وفي رأيي هذا هو منهج الحركة الإصلاحية التي أجبرتها القوانين الفرنسية على الإمتناع من الخوض في شؤون السياسة، ولكن الواجب الديني

1: كرين برينتون، عالم المعرفة، ترجمة شوقي جلال، الكويت 1984، ص 89.

2: محمود أبو الفيض المتوفى، الدين والعالم والفلسفة، دار الكتب الحديثة، مصر (دت)، ص 91.

والوطني أجبرها على الإمتناع عن الإمتثال، فوجدت نفسها أمام واجبين متنافرين:

واجب الإمتناع، وواجب الامتثال لنداء الأمة والوطن، فاختارت الامتثال لنداء الأمة التي إحتضنت نشاطها كإحتضان الأم الحنون لأول مولود لها، بعدما أصابها اليأس من الإنجاب.

إن الفرق لشاسع بين العمل السياسي الذي لا يهم صاحبه من السياسة إلا بعض النتائج القريبة المدى، وبين العمل السياسي الذي يهدف في آجاله البعيدة إلى إصلاح الفرد فكريا، وروحيا وعقائديا من أجل التغيير الشامل لأوضاع المجتمع، وما تحقيق هذا الهدف بالشيء الهين.

إنها لمهمة عظيمة وعمل شاق يتطلب مجهودا أشق، ورجالا عظماء، ولا يتحمل المهمات العظيمة إلاّ العظماء، ولكل مهمة عظيمة أسلوبها ووسائلها، ورجالها، فرجال الحركة الوطنية ذات النشاط السياسي المباشر والمرخص له اختاروا أسلوبهم الخاص الذي يتماشى مع طبيعة الظروف التي كانوا يتحركون فيها، والقانون الذي يحتمون به، وكذلك نظرا لاقتباس هذه الحركة بعض المسائل التنظيمية والنقابية من الحركات السياسية الخارجية مع المحافظة على المحتوى العقائدي الإصلاحي[1] (الخ).

1: عبد الله شريط، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1981، ص 53.

أما الحركة الإصلاحية الدينية التي قادتها جمعية العلماء والتي ارتوت من منابع الحركة الوهابية[لخ]. كما أسلفت فقد إختارت أسلوب الدعوة الإسلامية، ولكن لم تكن غائبة في مضمونها العملي عن الفكر السياسي، ولكن تحت غطاء ديني، وهذا لأسباب تكتيكية حسب ما جاء في قانونها الأساسي الذي وصفت فيه نشاطها وأسلوبها في العمل: "جمعية اختارت أسلوب التكوين الإسلامي، على أساس أن الإسلام هو دين الأخوة، والتعاون، دين يفرض العدل والمساواة، ويحارب الظلم في جميع مظاهره، ويمجد العقل، ويشرك الفقراء مع الأغنياء في الأموال"[بر].

إن هذا النص في رأيي يحمل مشروع المجتمع الجزائري في جوانبه المتعددة، روحيا، أخلاقيا، سياسيا، واقتصاديا. ثم أسلوب تحقيق هذا المشروع الذي يبدو هينا، ولكنه عند الله عظيم. فما هو الهدف البعيد الذي تنتظره الأمة الجزائرية من شعب تكون تكوينا إسلاميا في عقيدته وسلوكه وأخلاقه إن لم تكن ثورة عارمة ضد المحتل الفرنسي، وسياسة التعفن التي ضربت أطنابها في

1: أنظر أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، 1900 -1930، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص 409.

2: ملحق سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر، دار الكتب، 1982.

الجزائر الرازحة تحت نير الإستعمار والتي زادها تعفنا تجار السياسة في القضية الجزائرية.

ولغرض في نفس يعقوب لم تفصح الجمعية مباشرة عن المشروع السياسي ولكنها عبرت عن أسلوبها الدعوي مستعملة شعار الثورة الفرنسية وهو "حرية، مساواة، أخوة" هذا الشعار الذي كانت تحتمي به الجمعية في نشاطها السياسي غير المباشر مما جعل حتى بعض الكتاب الفرنسيين يحصرون أهداف الجمعية في فهم القرآن، العودة إلى الثقافة الإسلامية القديمة وتبسيط الدين الإسلامي وإيقاظ الجزائريين من نومهم لكي يطالبوا بحقوقهم ويأخذوا مكانتهم في الحياة الكريمة[لخ].

فنشر الثقافة الإسلامية بين فئات الشعب الجزائري هو الوسيلة الناجعة لتحرير فكره، ما دامت الثقافة لا تنفصل عن الحرية، بل الثقافة هي الحرية، وتحرر المواطن من الجمود الفكري يعني تحرره من عبادة أفكار الآخرين في مجال الثقافة والحياة والسياسة بصفة عامة[بر].

فبالحرية الروحية والفكرية التي تضمنها الثقافة، ويحققها التعليم السليم تتحقق الحرية السياسية التي تدعو إليها الأحزاب

1: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج3، ص .91

2: عبد الكريم غلاب، في الثقافة و الأدب، مطبعة الأطلس، الدار البيضاء، ط1، 1964، ص 11.

السياسية، فالحرية المادية إذن ترتبط بالحرية الروحية والفكرية ارتباطا وثيقا، وبهذا الارتباط تبنى الحضارة، فبالأحرار وحدهم تتحقق الحضارة وتصنع[لخ].

والمرحوم البشير الإبراهيمي يشيد وينوه بدور جمعية العلماء في توجيه الأمة الجزائرية نحو الصالحات من الأعمال، و تربيتها التربية الروحية والعقلية ويتحدى إن كانت هناك هيئة قدمت للجزائر في ميدان التوجيه والإرشاد وتحرير العقول ما قدمته الجمعية، من أجل "تحرير النفوس من تأليه الأهواء والرجال، وإن تحرير العقول هو الأساس لتحرير الأبدان، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا"[بر].

نلاحظ أن أقطاب جمعية العلماء يتركز على الجانب الدعوي لأنهم يدركون أنه بالثقافة الإسلامية تتحقق التوعية السياسية، وتزداد اللحمة الاجتماعية بين الفرد والمجتمع[تر]، وبهذا التلاحم تتجه الكلمة نحو الهدف العظيم الذي تصبو إليه الأمة الجزائرية، وقد لاحظ أحد الكتاب الفرنسيين وهو "ديباري" في كتابه (القادة

1: ألبرت اشفيتر، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمان بدوي، وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة، 1923، ص 21.

2: عيون البصائر، مرجع ذكر، ص 34.

3: مالك بن نبي، أفاق جزائرية، ترجمة الطيب شريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر (دت)، ص ص 136 - 137.

في إفريقيا الفرنسية) المنشور في يناير 1933 أن كلمة السر عند العلماء هي "تعلموا توحدوا"[1] (لخ).

- ألا تعتبر الدعوة إلى التعلم والوحدة، دعوة إلى موقف سياسي بعيد المدى؟

التعلم حرب على الجهل والأمية، الوحدة والتوحد حرب على الفرقة والتفرق والتشتت بين أفراد الوطن الواحد، وهو الجزائر، والاستعمار الفرنسي كان يراهن على هذين العاملين وجمعية العلماء فهمت منهجية الاستعمار البغيض الذي وجد في بعض الطرقيين وأشباه السياسيين مطية يركبها لتحقيق مأربه في الجزائر.

ولكن الشيخ بن باديس رحمه الله راح يغازل فرنسا ويراوغها لتفويت الفرصة على الذين يراهنون على أسلوب العنف والتمرد الصريح الذي يؤدي إلى منع الجمعية من التحرك في المجتمع الجزائري، وعبر عن رغبة الجمعية وآمالها من حصول الجزائريين (من حكومتهم) على الحقوق التي يتمتع بها غيرهم من المواطنين "ففرنسا العظيمة لابد من تعطيهم يوما - ولا يكون بعيدا – جميع ما لهم من حقوق وكنا لا نرى منهم لهذا إلا قبولا حسنا

1: أبو القاسم سعد الله (مرجع ذكر)، ص 91.

وأمالا طيبة"[لخ]، وفي نفس السياق أشاد المرحوم إبن باديس بأبناء الراية المثلثة، ولعله يقصد شعار الثورة الفرنسية الذي أشرت إليه وهو (حرية، مساواة، أخوة)، إن هذا التستر هو الذي جعل بعض التيارات السالفة الذكر تحاول استبعاد الإصلاحيين من العمل السياسي، ولكن المرحوم ابن باديس أجابهم بمحاضرة ألقاها في تونس عام 1937 قال فيها: "وكلا منا اليوم عن العلم والسياسة معا، وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول، لأنهم تعودوا من العلماء الإقتصار على العلم، والابتعاد عن مسالك السياسة مع أنه لابد لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم و الدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بجد"[بر].

إن مضمون هذا النص يبدو متناقضا مع القانون الأساسي للجمعية والذي ينفي عنها الطابع السياسي حيث جاء في هذا القانون: "لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض وتتدخل في المسائل السياسية"[تر].

1: عمار طالبي، ابن باديس حياته و أثاره، الجزء الرابع، الجزائر، مكتبة مرزاقه، 1968، ص 321.

2: ابن باديس حياته و آثاره، إعداد و تصنيف عمار طالبي، الجزائر، مطبعة مرزاقه، المجلد 1968، ص 331.

3: القانون الأساسي للجمعية، ص 5.

ولكن المرحوم ابن باديس أزال هذا التناقض وقال في نفس السياق: "إني أحدثكم لا بصفتي رئيسا لجمعية العلماء، ولكن باسمي الخاص"[لخ].

وكأن بابن باديس يريد ضرب عصفورين بحجر واحد، فهو من جهة يريد أن يلفت انتباه التيارات الأخرى إلى أن العمل السياسي ليس حكرا على جهة دون أخرى، ومن جهة أخرى يريد أن يبعد ملاحقة الاستعمار الفرنسي لجمعية العلماء المحظور عليها النشاط السياسي باسم القانون الصادر في جويلية 1901 المنظم للجمعيات. ولرفع اللبس أكثر ورد توضيح أكثر في القانون الأساسي لمفهوم العلماء وهم: "الأعضاء العاملون الذين يصح أن يطلق عليه «عالم» بالقطر الجزائري بدون تفريق الذي تعلموا ونالوا الإجازات بالمدارس الرسمية الجزائرية والذين تعلموا بالمعاهد الإسلامية الأخرى"[بر].

وقد أورد الدكتور أبو القاسم سعد الله تعريفا إضافيا لمفهوم العلماء في أوربا وفي الشرق الأدنى مفاده: "غالبا ما تعني عبارة « العلماء » في أوربا وفي الشرق الأدنى رجال الدين والمتخصصين في الشؤون الدينية ومفسري القانون الإسلامي، ولكن هذه العبارة تعني في الجزائر معنى مختلفا نوعا ما، فعبارة « العلماء » تعني أولئك الجزائريين المثقفين الذين بالرغم من تعليمهم العربي

1: ابن باديس حياته و آثاره، مرجع ذكر، ص 331.

2: أنظر القانون الأساسي.

وتوجيههم الإسلامي أصبحوا هادفين بشكل واضح سياسيا ووطنيا.

وهذا التحول من وجهة نظر دينية محضة إلى التدخل السياسي قد حتمته سياسة فرنسا نحو الثقافة والشخصية الجزائرية. فالفرنسيون قد أهملوا واضطهدوا هذين المظهرين"[لخ].

فهناك إذن فعل سياسي استعماري، ورد فعل سياسي وطني، قامت به جمعية العلماء، وهنا يمكن أن نسجل الفرق بين الذين امتهنوا السياسة للوصول إلى كراسي النيابة، وجمعية العلماء التي إقتحمت ميدان السياسة للدفاع عن كيان الأمة الجزائرية، ثم إنها لم تكتف بالجانب النظري بل إنتقلت إلى الجانب العملي الميداني، حين طلبت عقد مؤتمر سياسي يجمع جميع الفئات التي كانت تمارس النشاط السياسي في الثلاثينات.

وقد جاء في جريدة الدفاع اليومية عدد 3 جانفي 1936 أن دراسة الحالة السياسية للمسلم الجزائري يجب أن تناقش من طرف جميع الممثلين والموجهين للرأي العام الإسلامي الجزائري بما فيهم العلماء، ولهذا أصبح من الضروري عقد مؤتمر إسلامي في أقرب وقت[بر]، وبهذا يكون قادة الجمعية عبروا عن روح التعايش

1: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزء الثاني، الجزائر، 1983، ص 407.

2: مجلة الوثائق الوطنية، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، عدد 6، الجزء الأول، 1977، ص 32.

السياسي مع كل الأطراف الفاعلة في الحياة السياسية، ورفضهم لفكرة الإقصاء التي تنادي بها بعض التيارات المعاصرة التي تريد فرض أرائها خارج الصناديق الزجاجية، والحقيقة التي لا مناص منها هي أن المرحوم إبن باديس كان سابقا لطرح فكرة أول مؤتمر سياسي يناقش قضايا الأمة الجزائرية، وهو مؤتمر لا يختلف في طبيعته عن المؤتمرات التي تعقدها الأحزاب السياسية الأخرى في الفكر المعاصر.

وإذا كان هناك من خلاف سياسي بين جمعية العلماء ونجم شمال إفريقيا فهو خلاف في أسلوب العمل لم يبلغ درجة العداء الصريح بين الطرفين لأن النجميين كانوا يرون في جمعية العلماء هيئة إصلاحية لها القدرة على التوعية الدينية والحفاظ على الشخصية، لإتصالها بالجماهير وسيطرتها على ودّهم وتعلق هذه الجماهير بها لتدينهم الكبير. وقد أظهرت الجمعية قدرتها بالفعل على منافسة النجم حتى في فرنسا التي بلغ فيها عدد الأندية سنة 1938 عشرة أندية"(لخ)[1].

ومن هنا يظهر دور الدين في التوعية السياسية وفي تجنيد الشعب الجزائري في العمل السياسي، فالمواطن الجزائري في الثلاثينات كان مواطنا دينيا أكثر منه سياسيا، فكان يربط

1: زوزو عبد الحميد، دور المهجرين الجزائريين في فرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية، 1919 -1939، الجزائر، 1974، ص 135.

حب الوطن بالإيمان وكان يربط الاستشهاد في سبيل الوطن بالجنة، ولهذا كان نشاط جمعية العلماء أكثر تأثيرا وأشد وقعا على نفسية المواطن الجزائري، ولهذا كانت جمعية العلماء حريصة كل الحرص على توحيد صفوف الأمة ففي قانونها الأساسي نصت المادة العشرون على ضرورة تناسي كل خلاف يفرق الأمة وطالبت بالتآزر والتكاتف من أجل وحدة الكلمة التي تخدم الأمة(لخ).

وبهذه الدعوة تكون جمعية العلماء هي التي زرعت البذرة الأولى لفكرة المصالحة الوطنية بين كل الجزائريين بمختلف توجهاتهم ولعل القضية التي أثارت الجدل السياسي بين الجمعية والنجم هو مشروع "فيوليت" هذا المشروع الذي إستقبلته الجمعية بالرضى لأسباب مرحلية ومبدئية، وواجهته حركة النجم بالرفض والنفور.

العلماء كانوا يرون في "المشروع" خطوة في طريق التطور الاجتماعي الذي يشمل كافة المجتمع الجزائري بالتدريج، وليس هناك في نظرهم أدنى خطر على الشعب الجزائري، طالما بقي متمتعا بشخصيته الوطنية، وما ارتباط الشعب الجزائري بفرنسا الذي نص عليه المشروع إلا في حدود التعاون وأمام اقتناع العلماء بوجهة نظرهم، لم يجد النجميون "سوى التعبير عن أسفهم لوجود

1: سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص 16.

شخصية ذات مقام كبير تساند هذا المشروع الذي يعتبرونه خطرا على الشخصية الوطنية"[لخ].

نلاحظ أن الإختلاف ليس في الهدف ولكن في أسلوب العمل، وفي الرؤية السياسية لطبيعة الأمور، وهذا نجده حتى داخل الحزب الواحد في حياتنا المعاصرة، فمادام مشروع "فيوليت" ينص على منح الجنسية الفرنسية لبعض المثقفين الجزائريين بدون التخلي عن أحوالهم الشخصية[بر].

فإن الجمعية لا ترى فيه خطرا، وإنما هو وسيلة للحصول على بعض الحقوق للجزائريين، وأن هذا المشروع يعزز موقع الجمعية في التحرك السياسي والديني، ثم إن قبول جمعية العلماء لمشروع "فيوليت" لم يمنعها من الوقوف في وجه دعاة الإدماج، الذين رد عليهم إبن باديس بلغة صريحة بقوله: "إن الشعب الجزائري ليس فرنسيا، ولا يريد أن يكون فرنسيا حتى لو أراد ذلك فلا يستطيع، لأنه بعيد عن فرنسا بلغته و عاداته وأصوله و ديانته"[تر].

وقد أكد ابن باديس أن الشعب الجزائري أشد الشعوب تمسكا بمميزات جنسيته القومية التي تجعل إدماجه أو محوه أمرا

1: زوزو عبد الحميد، مرجع ذكر، ص 134.

2: أبو القاسم سعد الله، ج3، ص 164.

3: جوان غلسبي، الجزائر الثائرة، تعريب خيرى حمادى، بيروت، دار الطليعة، 1961، ص 62.

مستحيلا[لخ]، ثم إنه حذر الشعب الجزائري من خطأ الغرور الانخداع والمماطلة سواء من فرنسا أو الذين ركبوا حصان فرنسا، وطالب الجزائريين باليقظة وعدم الانقياد للذين يعدونه ويخلفون، ويمنونه ثم يتراجعون وقال مخاطبا الشعب الجزائري: "أيها الشعب الجزائري، أيها الشعب المسلم، أيها الشعب العربي الأبي حذار من الذي يمنونك ويخدعونك، حذار من الذين يأتونك بوحي من غير نفسك وضميرك، ومن غير تاريخك وقوميتك، استوح الإسلام ثم تاريخك وقلبك"[بر].

فابن باديس ركز في نشاطه السياسي على أهمية التمسك بالمقومات الثقافية للشعب الجزائري التي أعتبرها منطلقا للعمل السياسي، فبقدر ما كان الإستعمار الفرنسي حريصا على تمزيق النسيج الثقافي للشعب الجزائري ليسهل عليه تحقيق مشروعه الإستطاني، كان إبن باديس وأقطاب الحركة الإصلاحية أكثر حرصا وأشد نشاطا وأخلص عملا للمحافظة على هذا النسيج الذي به يتم التماسك الإجتماعي، هذا التماسك الذي بدونه لن يكتب النجاح لأي عمل سياسي نبيل الهدف، ومثمر النتائج. فلا تعبئة سياسية ضد المحتل، بدون إثارة النخوة الوطنية، ولا نخوة وطنية بدون دغدغة القومي والضمير الوطني بإثارة العاطفة الدينية

1: عمار طالبي، مرجع ذكر، ص 352.

2: المرجع السالف الذكر، ص 365.

والمقومات الثقافية لمهانة من طرف الإستعمار الفرنسي، فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه[لخ]، وبفقدان الثقافة والتاريخ يتيه الشعب في نفق مظلم يصعب الخروج منه إلى بر الأمان، وهو ما لم يكن يرضي الإستعمار الفرنسي ومن كان يسير في فلكه.

وبتركيز الحركة الإصلاحية على تحصين الشعب الجزائري بالمقومات الحضارية الإسلامية تكون قد أقامت الموانع التي تحول دون ضياع الشعب الجزائري وذوبانه الذي أخاف النجميين من مشروع "فيوليت".

وهذه الاستحالة من الذوبان الثقافي عبر عنها أحد الفرنسيين بمرارة حين قال: "لقد أضحى إلحاق الجزائر بفرنسا من المستحيلات، أردنا ذلك أم أبينا، نظرا لاختلاف الشعبين في الجنس والدين"[بر].

فالخوف إذن من الإدماج الذي يحمله مشروع "فيوليت" يعتبر مستحيلا ما دامت المميزات الثقافية قائمة بين الشعبين الجزائري والفرنسي، وما دامت حركة الإصلاح تعمل على تربية النفوس والعقول والعقائد. فلا خطر على الشعب من مشروع "فيوليت" الذي

1: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهبي، القاهرة، دار الفكر، 1969، ص 108.

2: ريمون آرون (وآخرون)، الاستقلال للجزائر، ترجمة جان غبريل، بيروت، 1958، ص25.

رضيت به الحركة الإصلاحية لأسباب تكتيكية مرحلية ظرفية، غير أن الكولون أنفسهم عارضوا المشروع لأسباب نرجسية عنصرية، تعاليا على التقرب من الجزائريين نخبويين كانوا أم أنديجان، وهذا ما لم يرد أن يقتنع به الداعون إلى الاندماج، ولكن المرحوم ابن باديس فهم الموقف وعبر عنه بقوله: "ومسيو « فيوليت » رجل فرنسي قبل كل شيء، رأى من مصلحة فرنسا أن يقرب إليها الجزائريين ووجد برنامجه معارضة من طرف الكولون المعمرين، لأنهم تأبى أنفسهم أن نجتمع معهم على مائدة واحدة. فكيف يرضون أن نجتمع معهم في البرلمان؟

كما أنهم لما رأوا أن المؤتمر وضع ثقته في الواجهة الشعبية خافوا أن يصير نواب الجزائر كلهم من أنصار الواجهة الشعبية. وقد قبلت أكثرية الأمة مشروع "فيوليت" بالشرط المذكور باعتباره أقل المطالب، أما الأقلية فقد أبت قبوله تماما لأنها تخشى بعض الألاعيب التي لا تدري متى تكون، ونحن نحترم رأي هذه الأقلية ونأمل بقائها على رأيها، وهي تطالب بالاستقلال، وأي إنسان يا سادة لا يحب الاستقلال ؟"[1] (لخ).

من هذا النص نستنتج أمرين اثنين هما:

1. إيمان ابن باديس بالديمقراطية حين تحدث عن رأي الأغلبية مع احترام رأي الأقلية، فهو إذن ضد سياسة الإقصاء التي

1: عمار طالبي، المرجع المذكور، ص 334.

تبنتها بعض الأحزاب التي سمت نفسها بالديمقراطية في القرن العشرين، فهو إذن أخذ بمبدأ الاختلاف في الرأي مع خضوع الأقلية لرأي الأغلبية، دون الاستخفاف بحق الأقلية.

2. هو لا يرفض الاستقلال كهدف أسمى للحركة الإصلاحية، ولكنه اختار أسلوب المهادنة والمغالبة كمنهج للعمل السياسي. لأن أسلوب العنف الثوري يتطلب تحضير المناخ السياسي والاجتماعي، وهذا لا يتم إلا بتربية الشعب تربية سياسية دينية ووطنية، وهو ما كانت الحركة الإصلاحية حريصة على تحقيقه بإتباع سياسة التريث والتحذير لفرنسا التي كانت تعتمد على قوتها المادية في تعاملها مع الأحداث، وهذا ما نفهمه من النص الآتي لابن باديس: "لو كانت الحكومة تقبل نصيحتي كإنسان لنصحتها باستعمال الإحسان الذي يمكنها به المحافظة على صداقة هذا الشمال الإفريقي، والخلاصة أننا قلنا نحن لنا ثقة في الواجهة الشعبية ولا زلنا نقول ذلك، وقلنا ننتظر، وها نحن ننتظر ولكن للانتظار حد محدود، إذا خاب أمل الأمة الجزائرية فإنها لا تخيب وحدها، بل تخيب معها فرنسا أيضا"(لخ).

ابن باديس يتحدث عن الصداقة مع فرنسا، والصداقة لا تعني الذوبان الذي يحدث بين الغالب والمغلوب، والقوي والضعيف، ولكن تكون بين طرفي قوتين متعادلتين، فقوة فرنسا في عدتها،

1: المرجع السابق، ص 334.

وقوة الحركة الإصلاحية في شعبها وأمتها، ولهذا طالبت جمعية العلماء قادة الأحزاب السياسية أن يتحملوا مسؤوليتهم أمام الله والوطن والأمة[لخ].

ومن خلال هذه النصوص والمواقف التي سجلتها الحركة الإصلاحية نستخلص حقيقة لا جدال فيها أن الحركة الإصلاحية لم تكن جمعية ذات طابع ديني فقط، بل مارست النشاط السياسي مثل باقي الأحزاب السياسية الأخرى، ولكن لكل خطة ومنهج حسب طبيعة كل هيئة والظروف التي يتحرك فيها كل طرف، المناهج مختلفة، ولكن الهدف واحد وهو تعبئة الشعب وتهيئته للثورة الكبرى التي شارك فيها الشعب الجزائري بكل مناطقه. ولهذا فإن نشاط الحركة الإصلاحية امتد إلى كل ربوع الوطن بما في ذلك منطقة القبائل التي واكبت الحركة الإصلاحية.

- فما طبيعة النشاط الإصلاحي في هذه المنطقة؟

النشاط الإصلاحي في منطقة القبائل:

انطلق المصلحون في نشاطهم في منطقة القبائل من نقدهم لطرق التعليم ومحتواهم في الزوايا نظر لمكانة هذه الزوايا في نفوس سكان المنطقة، بحكم أنها مؤسسات دينية إسلامية تكتسي طابع القداسة في نفوس السكان ولهذا راح المصلحون

1: البصائر عدد 10 يوم 1947/10/13، ص ص 1 -2.

ينشرون مقالات نقدية، لاذعة في بعض الأحيان، ولعل هذا النقد اللاذع هو الذي جعل بعض الطّرقيين يقفون موقف العداء من الإصلاح.

فالمرحوم الشيخ الطيب العقبي زار منطقة القبائل وحذر أحمد بن يوسف الجنادي صاحب زاوية سيدي منصور بناحية عزازقة[لخ]، ولهذا أصبحت كلمة "عقبي" تعني عند هؤلاء "المارق".

ومن الذين تصدوا النقد لزوايا كبرامج ومحتوى لا كمؤسسات نذكر الشيخ أبويعلي الزواوي والشيخ المولود الحافظي الذي نشر مقالات في "الشهاب" ونقد بعض العادات الممقوتة، وكذلك الشيخ السعيد بن زكري صاحب كتاب (أوضح الدلائل في وجوب إصلاح الزوايا في منطقة القبائل) سنة 1903.

والذي دعا فيه إلى إصلاح الزوايا التي تمثل الدين الإسلامي البريء مما علق بهذه الزوايا من الخرافات والبدع[بر].

وهناك حركة أخرى اعتمدت عليها الحركة الكشفية التي دعمتها الجمعية الإصلاحية في منطقة القبائل وهي الحركة الكشفية التي دعمتها الجمعية الإصلاحية، وهي جمعية العلماء التي كان الشهيد محمد بوراس عضوا بارزا فيها، وقد وقع إتصال

1: أنظر، مقران يسلي، " رسالة ماجستير: الحركة والإصلاحية والدينية في منطقة القبائل، 1920 -1954"، الجزائر، 1995، ص 257.

2: نفس المصدر، ص 237.

بين الجمعية والحركة الكشفية ومن المرشدين الذين نشطوا في الحركة الكشفية في تيزي وزو السادة:

رابح بوبريط – محمد صغير فرج - محمد القشعي – صالح الونشي – عمر أبو عضاو – رمضان آيت اعمر.

- وقد كان لهذه الحركة الكشفية برنامج حافل يتمثل في المحاور الآتية:

1 - عقد إجتماعات لنشر الفكر الإصلاحي.

2 - مساندة مظاهرات 8 ماي 1945.

3 - توزيع مناشير سياسية تندد بالاستعمار الفرنسي في الجزائر.

4 - تعليم أناشيد إسلامية ووطنية، وتأسيس فروع كشفية.

إن هذا النشاط الوطني جعل الإدارة الفرنسية تضايق الحركة الكشفية في منطقة القبائل، وقد وقعت مشدات بين الكشافة والإدارة في الأربعاء ناث إيراثن وبني يني يوم 15 ماي 1945، مما جعل محافظ تيزي وزو ينبه السلطة الفرنسية إلى خطورة العمل الكشفي على فرنسا[1].

والمحطة الأخرى التي تتجلى فيها الحركة هي المدارس التعليمية، ونظرا لكثرتها في المنطقة لا يمكن التعرض إليها بالتفصيل، لا من حيث تاريخ النشأة، ولا من حيث المضمون ولكن أكتفي بما أراه مهما في إبراز أثر الحركة الإصلاحية في المنطقة.

1 : المصدر السابق.

ومن هذه المدارس:

1. مدرسة بجاية:

التي أسسها الشيخ الهادي زروقي خريج جامعة الزيتونة، وعضو بارز في حركة الإصلاح الذي نال شهرة في المنطقة، ومن الذين درسوا وشاركوا في نشاط هذه المدرسة الشيخ علي شنتير[لخ].

ولعل ما أكسب هذه المدرسة ثقة السكان ووقوفهم بجانبها، واحتضانهم لنشاطها هو مواد تدريسها. وطريقة التعليم فيها. ومن هذه المواد: الرياضيات - التاريخ - الجغرافيا - اللغة العربية - التربية الإسلامية[بر].

ولم يكتف الشيخ الزروقي بالتعليم بين جدران المدرسة، بل راح ينتقل في القرى والمداشر لنشر الوعي الفكري والسياسي في القالب الديني، ولم يكن الشيخ ينتظر قدوم الناس إليه. ولكنه هو الذي يتصل بالسكان رغم الحصار والمضايقات، ومن الأمثلة على هذه المضايقات ما تعرض له من تعذيب في سنوات 1937 - 1938.

ومن الطلبة الذين تخرجوا على يد الشيخ الزروقي: (- الشيخ محمد الطاهر بكاري - الأستاذ مولود الطياب - الشيخ محمد الصالح معافري - حمود بوزوزو - الشيخ العربي الشريف الذي

1: المصدر السابق، ص 265.

2: أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج2، الجزائر (دت)، ص 285.

استشهد في ثورة التحرير، والذي كان إماما بمسجد سيدي عيش. ومديرا في مدرسة حرة في بني منصور، ومنها اختطف واستشهد رحمه الله)[لخ].

ومن نشاط هذا الشيخ الزروقي أيضا تأسيسه لمدرسة دلس سنة 1941، وانتقاله إلى التدريس في مدرسة مستقبل الشباب في حسين داي وإرساله للبعثات العلمية إلى تونس، وتم تكليفه من طرف جيش التحرير بعد اندلاع الثورة بتنظيم التعليم وتوسيعه وإصدار الفتاوى، لأن جيش التحرير منع المواطنين من التوجه إلى المحاكم الفرنسية لحل نزاعاتهم الاجتماعية المتعلقة بالخصومات العائلية في ميدان الزواج والطلاق قسمة التركة والميراث.

ومن المشايخ الذين ساهموا في الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل الشيخ عمر بوعناني المكلف بتسيير المدرسة الخلدونية في بجاية، وغيره كثيرون ممن ساهم في تكوين جمعية الكشافة الإسلامية وجمعية الراشدية وجمعية التربية والتعليم ببوقاعة ذات الصلة بمدارس التعليم بقسنطينة[بر].

1: مقران يسلي، "الحركة و الإصلاحية و الدينية في منطقة القبائل"، مصدر ذكر، ص 266.

2: المصدر السابق، ص 267.

2. مدرسة دلس:

هذه المدرسة الإصلاحية تأسست سنة 1931 وحضر حفل التدشين الأستاذ الشيخ إبن باديس والشيخ الطيب العقبي وغيرهم من جمعية العلماء كثيرون.

ومن معلميها: الشيخ الطيب بن ناصر مؤسس الحركة الإصلاحية بدلس، والأستاذ حمزة شنوف المعروف "بحمزة بكوش" والذي عينته جمعية العلماء مدرسا بها.

ومن المواد التي كانت تدرس فيها: (العلوم الدينية بمختلف فروعها، والعلوم اللغوية بما فيها من نحو وصرف واجتماعيات بصفة عامة)[لخ]، وما هذه المواد إلا صورة من صور التعليم العصري الذي يعبر الروح الإصلاحية والنهضوية لمثل هذه المدارس، وقد تعرضت هذه المدرسة للغلق كغيرها من المدارس الإصلاحية لما كانت تمثله من خطر على الاستعمار الفرنسي بما كانت تنشره من وعي والشعور بالذات والكينونة الوطنية والتي تكون في يوم ما منطلق التمرد على الأجنبي والمطالبة برحيله عن الجزائر.

3. مدرسة برج منايل:

يعتبر مسجد برج منايل الذي تأسس عام 1932 على يد جمعية العلماء، منطلق الحركة الإصلاحية، وقد شارك في تأسيسه الشيوخ الأجلاء: (عبد الحميد بن باديس – الطيب العقبي – العربي

1: جريدة البصائر، يوم 11 ديسمبر 1936.

التبسي – يحي حمود علي أو لخيار)، وتولى التدريس فيه كل من الشيخ محمد بن منصور والشيخ حسين المحفوظ والشيخ علي الشريف المعين من قبل جمعية العلماء سنة 1952[لخ].

ونشاط هذه المؤسسة لا يختلف عن باقي المدارس التي أنشأتها جمعية العلماء لنشر الوعي الفكري والسياسي والمعرفة العلمية والدينية البريئة من الخرافات والشوائب التي علقت بالدين نتيجة الانحطاط الذي لحق بالعالم الإسلامي.

4. مدرسة الشبيبة الإسلامية بتيزي وزو:

تأسست هذه المدرسة عام 1944 في مدرسة لالة سعيدة في تيزي وزو، وشارك في إدارة شؤونها والتدريس بها كل من: الأستاذ رابح بونار وهو من قرية رجاونة من أعالي تيزي وزو، والشيخ حسن حموتان. وساهم في نشاطها الإداري: السيد أرزقي دالي والشيخ علي بن السعدي من عاصمة الجزائر، والشيخ علي الشرقي الذي كان له الفضل في إصدار جريدة إصلاحية سماها "الليالي " عالج فيها موضوعات إصلاحية[بر].

ومن مظاهر المضايقات والمراقبة الإدارية من طرف الاستعمار لهذه المدرسة، أن الإدارة الفرنسية حذرت الشيخ حسن حموتان - رحمه الله – من التعرض في التدريس إلى المواد العلمية ولكنه لم

1: مقران يسلي، الحركة الدينية في منطقة القبائل، مصدر ذكر، ص 275.

2: المصدر السابق، ص 278.

يمتثل، وكان يختار وقت الغداء وهو منتصف النهار لتدريس مادة الرياضيات ولكن الوشاية لعبت دورها، فذات يوم بينما كان يدرس حساب المثلثات، فإذا بمصالح الشرطة تفاجئه وهو يرسم على السبورة مثلثا، فقالوا له: ما هذا المثلث الذي رسمته على السبورة ونحن حذرناك من تدريس الرياضيات؟ أجابهم: لقد وردت كلمة مثلث في نص القراءة، ورسمت لهم مثلث لأشرح لهم معنى المثلث.

وقد نسقت هذه المدرسة عملها مع الكشافة (الهلال) وكانت تحتفلان بالأعياد الدنية، وتقدم تعليما عربيا إسلاميا على غرار باقي المؤسسات الإصلاحية عبر النوادي والمساجد، والجمعيات. مع الإشارة إلى أن مدرسة الشبيبة كانت الخصم العنيد لنشاط الحركة التبشيرية التي كان يمثلها في تيزي وزو كل من: الأب (رولان) والأب (ديكرس) المحاذين لمدرسة الشبيبة ورغم هذا القرب في المواقع فإن جهودهما باءت بالفشل، ونجاح الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل يعود – حسب وجهة نظري – إلى العوامل الآتية:

أولا: المناخ الفكري والثقافي الذي هيأته بعض الزوايا القرآنية المتحررة من الفكر الكهنوتي، هذه الزوايا التي تعود نشأتها إلى القرن التاسع الهجري –الخامس عشر للميلاد - وهكذا فإن نشاط الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل لم ينطلق من فراغ.

ثانيا: معظم رجال الحركة الإصلاحية الباديسية كانوا من منطقة القبائل، وأنهم كانوا يخاطبون السكان في بعض الحالات بالقبائلية. ومن الذين تولوا هذه المهمة نذكر على سبيل المثال:

- الشيخ صادق عيسات.
- ناصر الدين القنزاتي.
- الفضيل الورتلاني.
- باعزيز بن عمر.
- أبو يعلى الزواوي.
- الشيخ السعيد البهلولي[1] (لخ).

ثالثا: تبني الحركة الإصلاحية لقضية الأمة الجزائرية برمتها، وجوهر هذه القضية هو الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية المتمثلة في الدين الإسلامي الذي جاء بتعاليم وأحكام تتماشى مع طبيعة سكان المنطقة، وهي: الحرية، الكرامة، الأخوة، تمجيد العمل، النخوة على الجار، رفض العبودية إلخ.

وكذلك اللغة العربية بصفتها لغة القرآن الكريم، هذه اللغة التي كان القبائلي الأصيل يعتز بها إلى درجة التقديس. فكان سكان المنطقة يأبون أن تداس أو تهان أي وثيقة أو ورقة مكتوبة بالحرف العربي الذي نزل القرآن الكريم.

1: أنظر رسالة ماجستير، أمقران يسلي، مرجع ذكر، ص 287.

فالحركة الإصلاحية إذن تبنت قضية الأمة الجزائرية، وسكان المنطقة احتضنوا هذه الحركة بصفتهم جزءا لا يتجزأ من هذه الأمة.

رابعا: طلبة المنطقة الذين كانوا يتوافدون على معهد إبن باديس لتلقي العلم، ثم العودة للقيام بمهمة التدريس في المدارس والزوايا القرآنية التي كان طلابها من السابقين إلى الانضمام إلى صفوف جيش التحرير الوطني في الثورة المباركة، وهذا ما جعل الاستعمار الفرنسي يشدد الخناق على هذه المؤسسات الثقافية، ويطارد طلابها اعتقالا وقتلا، وتعذيبا وهدما.

وبهذا يمكن القول أن الحركة الإصلاحية الباديسية قد ساهمت مساهمة كبيرة في النشاط الفكري والسياسي الذي أثمر ثورة التحرير الكبرى التي كانت نارا ثم بردا وسلاما على البلاد والعباد.

وبهذا يمكن القول أن الحركة الإصلاحية الباديسية قد ساهمت مساهمة كبيرة في النشاط الفكري والسياسي الذي أثمر ثورة التحرير الكبرى التي كانت نارا ثم بردا وسلاما على البلاد والعباد.

المراجع:

1 - مقال الأستاذ محمد العربي ولد خليفة، جريدة الأحرار اليومية 3 أكتوبر 2005.

2 - علي عبد المعطي محمد وآخرون، السياسة بين النظرية والتطبيق، دار الجامعات المصرية 1974.

3 - حسن صعب، علم السياسة، بيروت 1972.

4 - عمار طالبي، محاضرة في جامعة الجزائر 8 مارس 1977.

5 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الجزائر (دت).

6 - أرسطو: السياسيات، بيروت، ترجمة الأب أوغسطين 1947.

7 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، الجزائر 1969.

8 - تركي رابح، أنظر مجلة الأصالة، عدد 24 مارس 1975.

9 - محمد الهادي الحسيني، جريدة الشروق اليومية 2005/10/06.

10 - محمد عابد الجابري، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة الجزائرية، عدد 77، أكتوبر1983.

11 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج3، 1974.

12 - عباس محمود العقاد، محمد عبده، سلسلة أعلام العرب (دت).

13 - عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، ترجمة فيصل عباس، بيروت، دار الحداثة، 1981.

14 - شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم، الجزائر، 1976.

15 - جريدة الشريعة، لسان حال جمعية العلماء، عدد 17، جويلية 1933.

16 - كرين برنتون، عالم المعرفة، ترجمة شوقي جلال، الكويت، 1984.

17 - محمد أبو الفيض المتوفي، الدين والعلم والفلسفة، دار الكتب الحديثة، مصر (دت).

18 - عبد الله شريط، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية، الجزائر، 1981.

19 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، 1983.

20 - ملحق سجل جمعية العلماء، الجزائر، 1982.
21 - عبد الكريم غلاب، في الثقافة والأدب، دار البيضاء، 1964.
22 - ألبرت أشفيتر، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمان بدوي، مصر، 1923.
23 - مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة الطيب شريف، الجزائر، (دت).
24 - عمار طالبي، إبن باديس حياته وآثاره، ج4، الجزائر، 1968.
25 - مجلة الوثائق الوطنية، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، عدد 6، 1977.
26 - زوزو عبد الحميد، دور المهاجرين الجزائريين في فرنسا، الجزائر، 1974.
27 - جوان غلسبي، الجزائر الثائرة، تعريب خيري حمادى، بيروت، 1961.
28 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، القاهرة، 1969.
29 - ريمون أرون، الإستقلال للجزائر، ترجمة جان غبريل، بيروت، 1958.
30 - البصائر، عدد 10، يوم 1947/10/13.
31 - مقران يسلي، رسالة ماجستير، الحركة الإصلاحية والدينية في منطقة القبائل، 1920 - 1945، الجزائر، 1995.
32 - أحمد توفيق المدني، حياة كفاح الجزائر (دت).